سينما

«كعكتي المفضّلة» إيرانية

صدقُ حب وجمال سينما

بسلاسة وهدوء لا يُخفيان وقائع وعمقاً في مقاربة الوحدة والحب والفرح والقهر، يروي «كعكتي المفضّلة» قصة جميلة عن عجوزين يلتقيان مصادفة

نديم جرجوره

قصّة عادية للغاية، رغم أنّها مرتكزة أساساً على حبٍّ وعلاقة هادئة وساعاتٍ قليلة. حبٌّ ينشأ بين أرملةٍ تبلغ 70 عاماً، وسائق سيارة أجرة في سبعينياته أيضاً. لحظةٌ واحدة تكفي لتشعر مَهين (ليلي فرهادبور) برغبة في التعرّف إلى فرامرز (إسماعيل محرابي)، وفي تمضية وقتٍ معه، وإنْ يكن الوقت ليلاً، والصباح آتٍ لا محالة. مصادفةٌ تصنع اللحظة، واللحظةُ دافعٌ إلى اختبار عيش، بعد وقتٍ على رحيل أحبّة (زوج وأولاد)، موتاً أو هجرة أو استقلالية. هذا حاصلٌ معه أيضاً، كأنّ المشترك بينهما رابطٌ يحرّضهما على اختبار حبٍّ في عمرٍ متقدّم.

والاختبار هذا منبثقٌ مِن إحساس صادق بحبٍّ ينشأ من قناعةٍ، وإنْ تكن مبطّنة أو لاواعية، بأنّ الحياة أجمل من أنْ تُعاش في عزلة وانقطاع عن تعبيرٍ حقيقي بشعورٍ، يُراد له أنْ يصنع حياة. في «كعكتي المفضّلة» لمريم مقدّم وبهتاش صناعي ها، المشارك في مسابقة الدورة الـ74 (15 . 25 فبراير/شباط 2024) لـ«مهرجان برلين السينمائي»، تُروى الحكاية بشفافية ساحرة، وإيقاع هادئ يفتح أعماق ذاتٍ وروح تبوحان بما فيهما من أسئلةٍ وذكريات وانفعالات ورغبات، من دون فذلكةٍ كلامية وبصرية، بل بكثير من سلاسةٍ وبساطةٍ لن تحولا دون تبيان جمالٍ وصدق.

القصة تبدأ بعد سابقٍ عليها، يكشف شيئاً من تفاصيل عيش امرأةٍ وحيدةٍ، تستيقظ متأخّرةً في النهار، وتمضي وقتها في روتين يوميّ عادي. تشتري ما يلزم لغداءٍ مع صديقات عجائز، وتتنزّه في شوارع وحدائق، فتصادف شرطة أخلاق تريد اعتقال شابّةٍ «غير مرتدية حجابها كما يلزم». تسأل عاملاً في الحديقة عن الناس، لكنّها تُدرك أنّ العالم تغيّر، والأشياء القديمة مختفية، فتحاول مواجهة عصر، واضحٌ أنّها غير متصالحة معه. تدخل مطعماً، فتستمع إلى رجالٍ يقولون أشياء عادية، تعكس ما في يومياتهم من مللٍ وفراغ.

وحده فرامرز يَلفت انتباهها أولاً (يقول شيئاً عن وحدةٍ يُقيم فيها منذ زمن)، قبل أنْ تجهد في لقائه، فتدعوه إلى منزلها أول الليل: يتحدّثان، يأكلان. يشربان خمراً، تصنعه في منزلها. يرويان أشياء عن حياة وعلاقات وأيامٍ ماضية. تصنع له كعكتها المفضّلة، بعد أنْ يستمعا إلى أغنيات يرافقانها في شبابٍ وفترات. يضحكان. يرقصان. يمتلئان حياةً في حيّز صغير، سيكون أكبر من العالم، وأجمل من الحياة، وأصدق من العيش. والحيّز، إذْ يكون منزلاً متواضعاً له حديقة صغيرة، يواجه تلصّص جيرانٍ غارقين في انغلاقٍ وتزمّت، لكنّ مَهين قادرة على التصدّي، بشجاعة امرأة وحيدة مُتمكّنةٍ من المواجهة.

كلّ شيءٍ حلو، في لحظات فرحٍ ومتعٍ تمرّ في لقاء عاشقين، لعلّهما غير منتبهين كفايةً إلى معنى اللقاء والعشق، أو إلى أنّ عيشهما مطلبٌ وحقّ. في «كعكتي المفضّلة»، المعروض في «أفاق» الدورة الـ58 (28 يونيو/ حزيران . 6 يوليو/تموز 2024) لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي»، يتحوّل اللقاء (ساعاتٍ قليلة بين أول مساءٍ ممطر وبداية فجرٍ، وهذا الفصل أساس النصّ والحكاية، في سيناريو المخرجين أنفسهما) إلى مساحةٍ مفتوحةٍ على كلّ جميل يُصنع بصدق، وعلى كلّ فرحٍ يعكس براءةً وبهاءً.

> حبّ نابع من صدق وعيش متأتّ من رغبة وصدق ناشئ من فرح

كلّ سابقٍ على لقاء المنزل تفاصيل تُشكّل مدخلاً إلى عالم، واقعه أليمٌ وقاس. وهذا غير مرتبط بسياسة ونظام واجتماع، وإنْ تكن هناك إشارات إليه، فالأهمّ كامنٌ في اللقاء وعالمه، بما فيهما من نقدٍ مبطّن لأحوال، ومن كشفٍ خفيٍّ لوقائع. فكلّ فيلم، يُنجز في بلدٍ معقودٍ على قمع وانغلاقٍ وتشدّد، غير منزّهٍ عن موقفٍ أو قولٍ أو بوح، يمتلك شيئاً من قراءة واقع وحياة. رغم هذا، أميل إلى معاينة «كعكتي المفضّلة» بعيداً عن كلّ سياسة ونظام واجتماع، لما فيه من جمالٍ بصري وبهاء سرديّ، وهذان معطوفان على شفافية قول.

إنْ تطغى البساطة في السرد، من دون حجب ما فيها من أسئلةٍ ومشاعر، فالتمثيل أساسيّ. كأنّ مبارزةً تحصل، إذْ يُراد لهذا التمثيل (أيكون استثنائياً لشدّة عفويته وسلاسته وبساطته؟) أنْ يكون مرايا تُعرّي مخبّأ في ذاتٍ وروح، وتشارك في صُنع لحظة وصورة. أمّا النهاية (يُفضَّل عدم كتابة شيءٍ عنها)، فقاسية وصادمة، وإنْ يُلمَّح إليها قليلاً، بين حين وآخر.

«كعكتي المفضّلة»: لا عمر يمنع حبّا ولا حياة تمنع فرحا (الموقع الإلكتروني لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي»)

حوار أجرته **ندى الأزهري**

بعد عرض فيلمهما الأول في «مهرجان كارلوفي فاري السينمائي 2024»، أجرت «العربي الجديد» حواراً مع رَها أمير فضلي وعلي رضا قاسمي عن العمل وعن أوضاع ووقائع وصناعةٍ وفن

فضلي وقاسمي

«ما كتبناه مشابه لما سمعناه من الناس»

يُدركان أنْ لا عودة لهما إلى إيران بعد هذا الفيلم، حالياً على الأقل. أوّل فيلم طويل لرَها أمير فضلي وعلي رضا قاسمي عنوانه «في أرض الإخوة» (2024)، بثلاثة أقسام، تتابع حيوات عائلات أفغانية في 20 عاماً في إيران. حروبٌ غير منتهية في أفغانستان دافعٌ لخمسة ملايين أفغاني إلى اللجوء لإيران بأمل العثور على موطن جديد، يُستقبلون فيه كإخوة في الدين واللغة. لكنّ حلم التعايش الأخوي تلاشى سريعاً، ولم يقبلهم القانون الإيراني مواطنين متساوين. يُبرز الفيلم ما يعانيه لاجئون من تمييز وشروط عيش، تزيدها صعوبةً مشكلة اللاانتماء، المفروضة عليهم من بلدٍ لا يعترف بأنّهم جزء منه، رغم أنّ جيلاً جديداً ولد ونشأ في إيران، وآخر لا يُعترف بمواطنته. هناك أيضاً معاناة يومية، وعيش تحت ضغط الترحيل، أو فرض العمل الطوعي، وأحياناً تحرّشات جنسية، أو فرض مشاركة في حرب لا تعنيهم في سورية.

مشاركته في «عروض خاصة»، في الدورة الـ58 (28 يونيو/ حزيران . 6 يوليو/ تموز 2024) لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي»، دافعٌ إلى حوار مع مخرجَيه قاسمي (1990)، وفضلي (1995).

■ بما أنكما قادمان جديدان إلى السينما والمهرجانات، هل تُعرّفان القارئ بكما، وتخبرانه عن أسباب عملكما معاً؟

رها: ولدت ونشأت في طهران. درست السينما فيها. حالياً، أتابع دراسات عليا في نيويورك. في الدراسة، التقيت علي، وحقّقنا معاً أفلاماً قصيرة. لاحظنا أنّ أسلوبنا في الكتابة والإخراج متشابه. حين لم نكن نعمل معاً، كنا نتبادل مسوّدات نصوص، إلى أنْ أدركنا أنّه يمكننا الكتابة معاً. ثمّ قرّرنا التشارك في الإخراج أيضاً. عثرنا على مواضيع تُعجبنا، ثمّ تابعنا معاً، وأنجزنا فيلماً طويلاً.

علي: درست مع رها في الجامعة نفسها. تابعت دورة تدريبية في ألمانيا. أتممت دراساتي العليا في طهران، ونلتُ الماجستير عام 2018. أنجز كلٌّ منا فيلمين قصيرين، قبل التشارك في عمل. في الدراسة، شاركنا في «مهرجان الفيلم الصامت»، الذي عرض أفلاماً تروي قصصاً عبر الصورة. في هذا المهرجان، وبفضل نقاشاتنا معاً، أدركنا أنّ أذواقنا متشابهة.

■ إنْ لم تكن فكرة «في أرض الإخوة» عن وضع لاجئين أفغان من أجيال عدّة في إيران جديدة، فالمعالجة ترصد، بأسلوب جديد، هذه الحالة. ما دافعكما إلى اختيار الموضوع، واعتماد سرد ثلاث قصص في أكثر من عقدين؟

علي: اختيار القصص نابع من اعتقادنا بأنّ لدينا معاً خبرة عن اللاجئين الأفغان في إيران. لنا عمل مسرحي عن الفكرة نفسها، ورها تدرّس أفغاناً، فسمعت قصصاً عنهم.

■ الخبرة عن الأفغان والعمل معهم نابعةٌ من صدفة أم من رغبة مسبقة؟

رها: في المدرسة، وبفضل لقاء تلاميذ، تُتبادل أحاديث بينهم، ويحصل نوع من تقارب. عندها، لا تسألين عن عرق أو أصل. تصبحين صديقة لهم، ثم تدركين شيئاً فشيئاً الاختلافات. لا أظنّ أنّ المسألة اختيار مقصود. هناك أصدقاء نتشارك معهم الاهتمامات نفسها، وبعضهم غادر إيران، ونجح.

علي: أول تجربة لي معهم حين كنت أتابع دروس الفيلم الوثائقي في الجامعة. طلاب أفغان كانوا يأتون من مدن أخرى. لمجيئهم إلى طهران وتنقّلهم بين مدن إيرانية، يحتاج اللاجئون الأفغان إلى تصريح خاص. لزميل لي إذنٌ من مدينته، كان يريه للجهات المختصّة في طهران قبل دخوله الصفّ. وجدته يوماً ثائراً وحزيناً، وهو يعلن أنّه سيتوقّف عن طلب الإذن أسبوعياً، لأنّ ذلك يُضيّع وقته. فعلاً، لم يطلبه في أسبوعين. اكتشفوا ذلك طبعاً، ودمغوا ختم مخالفة على بطاقته الجامعية، وأعلموه بأنّ هناك وسيلة للتغاضي عن «الهفوة» ومسامحته إذا قبل الذهاب إلى سورية لإنجاز وثائقيّ عن المقاتلين هناك. كان هذا أول ما نبّهني إلى الظلم الذي يتعرّضون له. رأيت في هذا قصة تستحق أنْ تُسرد، فليس بمقدورهم فعل ذلك بأنفسهم، بسبب ما يتعرّضون له من تهميش.

■ كيف بدأتما الكتابة؟ ما المراحل التي مررتما بها لبلوغ الشكل النهائي؟

رها: الأهم، حين بدأتُ الكتابة، إعطاء الجمهور صورة عن وضع الأفغان اللاجئين في إيران، وإدراك أنّه غير طبيعي. هذا يحدث الآن، وحدث قبلاً، وسيحدث مستقبلاً. بدأنا بناء الفيلم على أساس فكرة المراحل، فهذا يعطي قدرة على تخيّل وضع لم يتغيّر في 20 عاماً، منذ وجود أميركا حتى «طالبان». مع أجيال مقبلة، ربما يبقى الأمر هكذا، وربما يزداد سوءاً.

علي: هذا حقيقي. بدأت الهجرة مع الغزو الروسي للبلد. حينها، وصلت موجة كبيرة، وتتابعت الموجات مع كلّ الحروب، حتّى عودة «طالبان» مجدّداً. هناك جيل ولد ونشأ في إيران، وليست لديه بطاقة هوية. حين يعودون إلى أفغانستان، لا يُقبَلون كأفغان، وكذلك لا يقبلهم الإيرانيون كإيرانيين. لديهم أزمة هوية، ولهذا اخترنا عمل الفيلم في ثلاثة فصول، لنقول إنه لا نهاية لهذه الأزمة، وإنّ أجيالاً عدّة عانت وتعاني.

■ هل القصص المختارة حقيقية؟ كيف كتبتما النص بشكله الحالي؟

رها: لم يتأسّس النصّ على أحداث حقيقية، في بداية الكتابة. بعد تبادل الأحاديث مع الناس في ستة أشهر، عند اختيار الممثلين، تطوّر النص. ما كتبناه مشابه لما سمعناه منهم، لكنّنا أغنيناه بتجاربهم.

علي: مفتاح الفيلم وأساسه كامنان في إمكانيات السلطة وقدرتها على التلاعب بالناس. نحن لدينا تجارب في هذا، ولو أنّ تجارب الأفغان مختلفة طبعاً.

■ ألم تُعانيا الشكّ بأهدافكما ونواياكما من الأفغان، نظراً إلى أنّ أسلوب تعامل إيرانيين مع لاجئين يبلغ حد السخرية أحياناً من لهجتهم الفارسية مثلاً؟

رها: طبعاً، هناك أفغان قلائل يُفكّرون أنّ إيرانياً يريد تحقيق فيلم عن حياتهم. لا شكّ أنّ هناك حذراً وشكوكاً إزاء نظرتنا. لكنْ، حين أدركوا ما أنجزناه من بحثٍ وتوثيق، شعروا بثقة أكبر، وشاركونا قصصهم. أظنّ أنّنا بنينا فيهم ثقةً بنا، وأنّنا تجرّأنا على رواية أوضاعهم.

علي: في التلفزيون الإيراني مسلسل يُظهر الأفغان بشكل فكاهي وسلبي. لكثيرين التقيتهم ذكرى شديدة السوء عن هذه الأعمال. لذا، كانوا حذرين ومتخوّفين في البداية إزاء الفكرة وكيفية إظهارهم. بعد قراءتهم النص، شاركونا أفكارهم وذكرياتهم وقصصهم، وبتنا بعد أشهر أشبه بعائلة. كانوا يرغبون في أنْ نرسم صورة حقيقية عنهم وعن تجاربهم، تلك التي لم نختبرها نحن. هذا بَثّ حياةً في نصّنا.

■ ربما هذه أول مرة تطرح فيها قضية الأفغان المقاتلين في سورية. لم يُشر إليها أحدٌ قبلاً، مع أنّ الجميع يعرفونها من دون ذكرها صراحة. مثير للاهتمام سماع وجهة نظر الطرف الآخر (الإيراني). لمَ هذه القصة بالذات؟

علي: «الفاطميون» اسم لواء يطلق على المقاتلين الأفغان في سورية. هذا موضوع كبير في إيران. لكنْ، كما قلت، هذا غير معلن رسمياً. القصة (مقتل ابن لأبوين أفغانيّين في سورية، المحرّر) مهمّة، لمعانيها العميقة. إنّها الطريقة الوحيدة للأفغان للحصول على «المواطنة»: أنْ يُقتَل قريبٌ لهم هناك. كما ذكرتُ، كانت القصة أساساً، تلك التي لزميل ذهب إلى سورية لعمل فيلم وثائقي. صُدِمت جداً حين رأيت فيلمه.

■ لماذا؟

علي: لأنّي وجدت صعوبة في تصديق أنّه يُمكن إجبار شخص على المشاركة في حرب لمجرّد أنّه لا يريد أنْ يُرحّل. هذه وسيلة السلطة المتحكّمة لإجباره على فعل ما تريده.

■ لكنْ، هل الأمر، كما في الفيلم، متعلّق فقط بالحصول على أوراق؟ أليست هناك عوامل أخرى، كالعقيدة مثلاً؟

رها: بعض من تحدّثنا معهم أشاروا إلى دور الإيديولوجيا الدينية في التوجّه إلى سورية. سمعنا قصصاً أخرى عن وعود الحكومة بإعطائهم مالاً أو هوية، أو أنّهم خائفون من الترحيل. الدين يتدخّل أحياناً، لكننا لم نلتقِ كثيرين ذهبوا إيماناً منهم بهذه الحرب.

علي رضا قاسمي ورها أمير فضلي (الموقع الإلكتروني لـ«مهرجان كارلوفي فاري السينمائي»)

قول

يقول علي إنّه يريد صنع أفلام في إيران، «لكنّي أنظر إلى الأمر كتحدّ: تحقيق فيلم خارج بلدي. أرى هذا مثيراً: أنْ أحكي عن الناس خارج إيران أيضاً. اشتهرت السينما الإيرانية بظهور فيلم من داخل إيران، فكيف سيكون الوضع حين يظهر من خارجها؟ هذا تحدٍّ. يمكننا صنع تيار سينمائي إيراني لإيرانيين من الخارج، وإذا نجحت، سيكون هذا جيداً. هذا بدأ مع إيرانيّي الشتات».